العرب
الأربعاء 2021/08/18
السنة 44 العدد 12152

الساقطون في أفغانستان

إبراهيم الزبيدي
كاتب عراقي

من المبكر أن نحكم على الأحداث الأخيرة في أفغانستان لنتأكد من كونها مؤامرة أميركية، كما يحلو للكثيرين من المحللين العرب المؤمنين بعدالة الولايات المتحدة وبقدرتها على فعل أي كان في أي مكان وفي أي زمان، أو من كونها هزيمة مُذلة لإدارة الرئيس الأميركي جو بايدن التي لم تحسن إدارة عملية إنهاء الوجود الأميركي في أفغانستان.

والذي يعنينا هنا، قبل أي شيء آخر، هو مصير مئات الآلاف وربما الملايين من الأفغان الذين وثقوا بأميركا وبنوا على وعودها جميع أحلامهم بالحرية والمعاصرة والعدالة بعد ظلام السنين السود الطويلة الثقيلة التي ذاقوا فيها من مرارة حكم العمائم المتخلفة الكثير.

فقبل أيام من سقوط العاصمة الأفغانية سُئل بايدن "هل بات استيلاء طالبان على أفغانستان أمرا حتميا"؟ فقال، "لا ليس كذلك، لماذا؟ لأن القوات الأفغانية تقدر بـ300 ألف جندي مجهز بالكامل بقدر تجهيز أي جيش في العالم، ووجود حوالي 75 ألفا من عناصر طالبان لا يجعل الأمر حتميا، لن يحدث تحت أي ظرف أن نجلي مواطنين من على سطح السفارة الأميركية هناك".

الدرس الذي لم يتعلمه الذين ارتضوا أن يكونوا أدوات في خدمة الأجنبي ولن يتعلموه، هو أن مصالح الدول الأجنبية لها مواسم تتبدّل فيها ومع كل تبدّل يتساقط خدمها المحليون ضحايا

ولكن ذلك حدث. كما أن السفارة الأميركية نقلت إلى مطار كابل، بعد إتلاف أجهزة وملفات تقدر أثمانها بمئات الملايين من الدولارات.

ويبرّر المسؤولون الأميركيون، عسكريين ومدنيين، مشاهد السقوط السريع لحكومة أفغانستان وجيوشها أمام طالبان بفساد السياسيين والعسكريين الأفغان.

وقال وزير الخارجية الأميركية أنتوني بلينكن في حديث مع "سي. أن.أن"، "إن الهدف الرئيسي من تدخل الولايات المتحدة في أفغانستان قبل 20 عاما كان ملاحقة مدبري هجمات 11 سبتمبر"، وقد "نجحت في تحقيق هذا الهدف".

إن الجزء الذي يعنينا من الملحمة الأفغانية المجلجلة التي تذكرنا بغزوة داعش للموصل وتدفق مجاهديه لاحتلال محافظات أخرى في بضعة أيام بسهولة ودون مقاومة، هو الدرس الذي لم يتعلمه الذين ارتضوا أن يكونوا عملاء وأدوات في خدمة الأجنبي في العصور السالفة، ولن يتعلموه اليوم، ولا غدا، وهو أن مصالح الدول الأجنبية لها مواسم تتبدل فيها وتتغير ومع كل تبدّل وتغيّر يتساقط خدمها المحليون ضحايا ويدفعون ثمن عمالتهم ولا يتعظون.

وهناك أمثلة عديدة قديمة وجديدة، على عملاء نصّبهم الأجنبي رؤساء وزارات ووزراء ونوابا ومدراء وسفراء وقادة جيوش وأصحاب أحزاب وشركات، فانتهوا إما قتلى تحت أقدام شعوبهم أو سجناء، أو هاربين يتخفّوْن في البلاد البعيدة تلاحقهم العدالة ليل نهار.

إن الكثيرين من الأفغان الذين تراكضوا نحو مطار كابل والمنافذ الحدودية دون حقائب، كانوا مدفوعين بالخوف من العودة إلى أيام القهر والقمع والتزمت والتخلف الذي جربوه في أيام حكم طالبان سابقا.

ولكنّ الأكثر رعبا وهلعا وتدافعا نحو أيّ وطن آخر يَهَبُهم اللجوء الإنساني المؤقت كانوا عملاء الولايات المتحدة الذين عملوا عشرين سنة مع الجيوش الأميركية بصفاتٍ مختلفة تتراوح بين الجاسوسية والإعاشة والتموين والترجمة والحماية، ثم تركتهم أميركا يواجهون مصيرهم بأنفسهم، تاركين قصورهم ومزارعهم وأموالهم دون راع ولا معين.

كما أن هذا المَصير البائس هو ذات المصير الذي لقيه أمثالُه، من قبل في بلدان عديدة وسيلقوْنه في بلاد أخرى غدا، دون ريب.

فالأجنبي يضع مصالحه فوق كل اعتبار. وبالتالي فإن قيمة أكبر عميل من عملائه لا تساوي عنده قيمة بعوضة. وحين تحكم تلك المصالح، فإنه يرمي بعملائه جميعا كبارا وصغارا، رجالا ونساء، في سلال المهملات، بأسرع من رمشة عين.

وشئنا أم أبينا لا بد أن يكون هذا هو مصير الولائيين العراقيين الذين ربطوا مصيرهم بإرادة الحرس الثوري الإيراني، وبأجهزة مخابرات دول أخرى أجنبية أخرى.

فالخراب الذين عصف بالشعب العراقي منذ 2003 وحتى اليوم، مثلا، هو جنون يبدو خارجيا، إيرانيا وأميركا وتركيا، في ظاهره، ولكنه، كلّه، فعلُ فاعلٍ محلي انتهازي رضي بأن يبيع نفسه ووطنه وأهله إلى دولة أجنبية تستخدمه لخراب بلاده، ولقتل مواطنيه، وسيدفع ثمن عمالته، ذات يوم.

فلا عتب على دولة أجنبية لها مصالحها وأطماعها القديمة أو الجديدة في العراق، ولكن العتب كلّه على من ربط حياته برضائها وإرادتها دون خوف ولا حياء.

إن أكثر الذين يتحملون مسؤولية خراب البصرة والناصرية والعمارة والنجف وكربلاء والموصل وتكريت والفلوجة وسامراء هم فرسان البيت الشيعي العراقي الولائي، ومعهم أبناؤهم وأصهارهم وأفراد حماياتهم وأعضاء أحزابهم، وجميع شركائهم في المحاصصة من قادة الأحزاب والتجمعات والتنظيمات الانتهازية السنية والكردية، وبعض الحواشي الأخرى اللاصقة بأصحاب السلطة.

ويبدو أن زمان الحساب القادم الأكيد قد اقترب. ففي خطاب ثوري وطني مفاجئ ألقاه حميد الياسري، قائد لواء أنصار المرجعية، ضمن فعاليات مجلس عزاء في محافظة المثنى بمناسبة شهر محرم، هاجم فيه "صوت التوجيه والإرشاد القادم من خلف الحدود". وقال "نحن نرفض هذه الانتماءات، ونرفض هذه الولاءات، ونعلن ذلك بأعلى أصواتنا دون خوف وتردّد"، مشددا على أن "من يوالي غير هذا الوطن فهو خائن".

ودعا مسلحيه ومواطنيه إلى "التحلي بالشجاعة التي رسمها الإمام الحسين دون خشية عبر التصدي لكل من يحاول التلاعب بمصير الدين والوطن"، وأكد أن "خذلان الأوطان خيانة، وفق ما تؤكد الروايات وسيرة الأولياء والصالحين، ومن يوالي غير وطنه لا دين له".

إذن فهذا هو أول الغيث، وغدا سينهمر، ولات حين مناص.

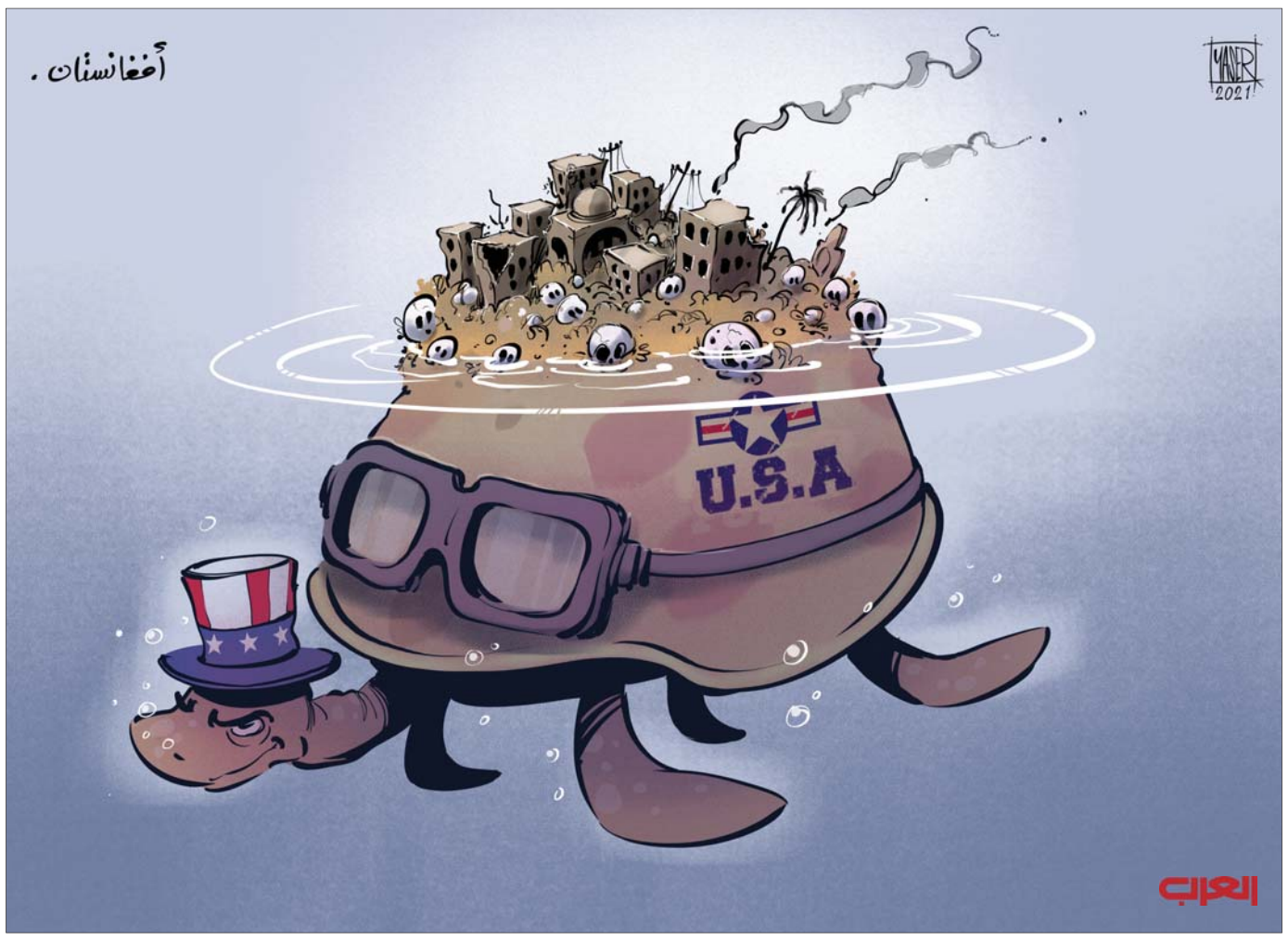

من يملأ الفراغ الأميركي...

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

لا توحي ردود فعل إدارة جو بايدن على اجتياح "طالبان" لأفغانستان، بما في ذلك كابل، بالكثير من الثقة في هذه الإدارة. نفذّت "طالبان" ما أرادته بعدما أوحت إلى الأميركيين الذين تفاوضت معهم، في الدوحة وغير الدوحة، بأنّها على استعداد للتعامل بطريقة هادئة وعقلانية مع الانسحاب العسكري الأميركي من البلد. من يشاهد ما يحدث في مطار كابل يترحّم على الانسحاب الأميركي من فيتنام في نيسان – أبريل من العام 1975 لدى مغادرة آخر أميركي سايغون في طائرة هليكوبتر أقلعت من سطح السفارة الأميركية...

حسنًا، قدمت إدارة بايدن كل المبرّرات التي تجعل الانسحاب العسكري من أفغانستان منطقيًا وذلك في ضوء الفشل في إقامة نظام سياسي قابل للحياة وجيش قويّ متماسك. بين المبررات أيضا حجم الأموال التي صرفت في أفغانستان والخسائر البشريّة التي لم تخدم المشروع السياسي الأميركي الذي بدأ تنفيذه في العام 2001 في عهد الرئيس بوش الابن. لكنّ كلّ هذه المبررات تسقط أمام ما يجري على أرض الواقع واستعجال "طالبان" دخول كابل.

توحي ردود فعل الإدارة بوجود نوع من السذاجة أو عدم الاكتراث بمستقبل أفغانستان وشعبها. ليس صحيحا ما قاله وزير الخارجية الأميركي أنتوني بلينكن عن أن أميركا حققت أهدافها في أفغانستان، إذ كانت تريد فقط القضاء على الإرهاب. لم يأخذ بلينكن في الاعتبار أن إرهاب "طالبان" يتجاوز العلاقة التي أقامتها مع "القاعدة" وإيواء الإرهابي أسامة بن لادن الذي كان وراء "غزوتي نيويورك وواشنطن". تجاهل كليًا أنّ إرهاب "طالبان" يمارس على الشعب الأفغاني وعلى المرأة خصوصا. أليس حرمان المرأة من التعليم إرهابا؟ أليس حجرها في بيتها إرهابا؟ أليس فرض زيّ معيّن على النساء إرهابا؟

كشفت إدارة بايدن ضعفا أميركيا ليس بعده ضعف لا يشبه سوى ضعف إدارة جيمي كارتر التي لم تعرف ماذا تعني إطاحة نظام الشاه في إيران وعودة آية الله الخميني ليقيم "جمهورية إسلامية" على مقاسه. كان احتجاز دبلوماسيي السفارة الأميركية في طهران 444 يوما ابتداء من تشرين الثاني – نوفمبر 1979 نقطة تحوّل على صعيد السياسة الأميركية في تعاطيها مع إيران. كشف احتجاز الدبلوماسيين رهائن عجز الولايات المتحدة عن الرد الفعّال على ما قامت به السلطة الجديدة في إيران التي نجحت في أوّل اختبار لها للنيات الأميركية. في الواقع كشف كارتر، الذي كان ساذجا إلى حدّ كبير، أن إدارته ما زالت تعاني من عقدة فيتنام.

ما يثير مخاوف كثيرة في المنطقة الممتدة من أفغانستان إلى موريتانيا، مرورا بالخليج والشرق الأوسط، أننا أمام إدارة أميركية يبدو أنّها لا تَفقَه بأَلِف باء المنطقة والشرق الأوسط وتعقيداتهما. الخوف، كل الخوف، من أن تكون إدارة بايدن امتدادا لإدارة باراك أوباما التي سقطت أمام إيران سقوطا ذريعا. كان السقوط الأميركي في الامتحان السوري مدوّيا، وذلك بعد استخدام بشار الأسد السلاح الكيميائي في حربه على شعبه في مثل هذه الأيّام من العام 2013. وفّر هذا السقوط الأوبامي دليلا على أنّ ليس أمام العرب بعد الآن غير أخذ أمورهم بيدهم. فلو اتكل العرب، على سبيل المثال فقط، على حسن نيّة الإدارة الأميركية لكانت مصر في خبر كان... لكانت مصر الآن في يد الإخوان المسلمين الذين هم على استعداد لعقد كل نوع من الصفقات مع إيران ومع غير إيران من أجل البقاء في السلطة والمساهمة في تفتيت المنطقة.

من كارتر إلى جو بايدن، مرورا بباراك أوباما، هناك سوابق لا تشجّع على الوثوق بالإدارة الأميركية الحالية، خصوصا أنّ كلّ الكلام الذي قاله الرئيس الأميركي عن "طالبان" قبل الاستسلام أمامها لم يكن صحيحا. أكّد بايدن أخيرا أن "طالبان" ليست جيش فيتنام الشمالية الذي بلغ سايغون في نيسان – أبريل 1975. سيكتشف عاجلا أم آجلا أن "طالبان" لم تتغيّر ولا تستطيع أن تتغيّر وأنّها منظّمة تنظيما جيّدا.

قد تكون الحسنة الوحيدة للانسحاب الأميركي من أفغانستان وما آلت إليه الأوضاع في البلد انكشاف إدارة بايدن. ليس منطقيا أن تكون هذه الإدارة جاهلة إلى هذا الحدّ بما يدور داخل أفغانستان وبالقدرات التنظيمية لدى "طالبان" الابن الشرعي للمخابرات العسكريّة الباكستانيّة. ليس منطقيا أيضا ألاّ يكون هناك اطلاع أميركي على ما يدور داخل المؤسسة العسكرية الأفغانية التي أشرف على إعادة بنائها منذ 2001 ضباط أميركيون وآخرون من حلف شمال الأطلسي. نظريا، كان هناك 300 ألف جندي أفغاني. تبخّر هؤلاء بمجرّد إعلان الرئيس الأميركي أنّ بلاده ستنسحب من أفغانستان عسكريًا قبل حلول الذكرى العشرين على 11 – 9 – 2001. تبيّن بكل وضوح أن النظام القائم في أفغانستان والذي على رأسه أشرف غني كان نظاما فاسدا وأنّ الرئيس الأفغاني، تماما مثل سلفه حامد كرزاي، ليس أهلا لتولي مسؤولية البلد. سارع غني إلى الهرب بمجرد أن قرع مقاتلو "طالبان" أبواب كابل...

ما يثير مخاوف كثيرة في المنطقة الممتدة من أفغانستان إلى موريتانيا مرورا بالخليج والشرق الأوسط، أننا أمام إدارة أميركية يبدو أنها لا تَفقَه بأَلِف باء المنطقة والشرق الأوسط وتعقيداتهما

في كلّ الأحوال، إن السؤال الذي سيطرح نفسه بعد وضع "طالبان" يدها على كابل، من سيملأ الفراغ الأميركي في أفغانستان والمنطقة كلّها. الأكيد أن استسلام أميركا أمام "طالبان" ليس خبرا جيدا، لكنّ الأكيد أيضا أن الحركة أظهرت من خلال طريقة دخولها كابل أنّها حركة منظّمة تنظيما جيدا وأنّ هناك قيادة لها تعرف تماما ماذا تريد.

ليس معروفا بعد هل الاستسلام الأميركي أمام "طالبان" نهائي. كلّ ما هو معروف أن الشعب الأفغاني أمام معضلة كبيرة اسمها حكم "طالبان" التي لن تتردّد في فرض ثقافة الموت على بلد راح يتراجع داخليا منذ سقوط الملكيّة فيه في منتصف سبعينات القرن الماضي.

جرّبت أميركا حظّها مع أفغانستان. قبلها، جرّب الاتحاد السوفياتي حظّه وفشل فشلا ذريعا. كان التدخل السوفياتي في أفغانستان من أسباب انهيار القوة العظمى الثانية في العالم. نجحت "طالبان" حيث فشلت أميركا والاتحاد السوفياتي... المشكلة أن ليس لديها مشروعها السياسي والاقتصادي. تشبه "طالبان" الحوثيين في اليمن. كل ما تستطيعه أخذ أفغانستان إلى المجهول بعدما نجحت في كشف مدى ضعف إدارة بايدن التي تقول إن لديها هموما أخرى غير أفغانستان.